فلسفة التربية في الفكر الإسلاميّ المعاصر

أ. م. د. عامر عبد الأمير حاتم
جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية
قسم علوم القرآن

الملخص:

يدور محور هذه الدراسة حول المنهج التربوي في الفكر الإسلامي المعاصر، والهادف في الأساس إلى رسم معالم لفلسفة التربية الإسلامية المعاصرة في سعيها إلى تحقيق غاية الرسالة الكونية بإيجاد الإنسان المؤهل لحمل تلك الرسالة، من خلال بناء محتواه الداخلي الذي يُعتبر الأساس لحركة التاريخ والمجتمع. تشتمل الدراسة على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة. تضمنت المقدمة دور التربية وأثرها في تكامل الشعوب وانحطاطها تبعاً لما تمتلكه من نظم تربوية تعكس فلسفتها الكلية للوجود. أما المباحث؛ فهي كالآتي:

١- الترابط بين التربية والتصور الكلي للوجود.

٢- مقومات المنهج التربوي في الإسلام.

٣- أزمة المنهج التربوي الإسلاميّ.

ثم خاتمة تضمنت أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

The Philosophy of Education in Modern Islamic Thought

Asst.Prof. Amer Abdulameer Hatim (PhD)
University of Baghdad / College of Education for Human Sciences

Abstract:

The study is about the educational method of the modern Islamic thought which aimed essentially to draw the features of the modern Islamic educational philosophy in its effort to achieve the aim of the universal mission in making the suitable man who carry this mission through building his inner content that consider the base of the movement of History and Society .

The study includes an (Introduction) which includes the role of education and its effect in the complementary and declension of peoples according to its educational systems which reflects its whole philosophy of universe.

The objects of research are :

1- The connection between the education and the whole conception of universe.
2- The elements of the educational method in Islam.
3- The crisis of the Islamic educational method.

Then the research draws a conclusion contained the prominent results obtained in this study.

المقدمة:

من بديهيات الأمور أنَّ أيَّ انحطاط حضاري للشعوب قد يعود بالأساس إلى نظمها التربوية؛ لأنَّ التربية عند الأمم إنما هي رأسمالها المتوارث لنموها المنهجي وتكوينها الحضاري، وهي عملية تنبثق من فهم الشعوب العميق للحياة، كما هي تجسيد لرؤيتها الكلية للوجود. فمن خلال العملية التربوية يربو ويتكامل صرح التراكم المعرفي للبشرية، ويتم توارث المبادئ والقيم المختارة لدى الأمم بين الأجيال، وبناءً على اختلاف الشعوب في نظرتها للكون والإنسان والحياة، تتباين أسس المناهج التربوية التي تُظهر فلسفتها الكلية للوجود .

إنَّ إعادة النظر في نظم فلسفة التربية الإسلامية من جهة، والتأمل المستمر في رؤيتها الكونية من جهة أخرى، يقصد منه إحياء معانيها وتنشيط وسائلها وتحقيق غاياتها التي باتت ضرورة في هذا العصر لعدة عوامل، لعل من أهمها أثر العولمة والمتغيرات العصرية على الأمة، والتطورات المتسارعة للعلوم الطبيعية والبيولوجية المجردة عن القيم التي تكبح جماحها، وأثرها على الحياة البشرية والبيئية، هذا إلى جانب القصور المنهجي للفكر الإسلامي في توظيف معطيات العصر وتطوراته العلمية والتقنية؛ فضلاً عن عدم استثمار ظروف الواقع الدولي لصالح الأمة، وهذا الأمر هو الذي أفضى إلى تخلفها عن القيام بمهمة رسالتها الكونية وعدم قدرتها على الاستفادة من تاريخها المجيد، فباتت هدفاً لأطماع الآخرين. هذا في الوقت الذي صارت الإنسانية تعيش في عصر زالت فيه حواجز الزمان والمكان، حيث تمكن الإنسان بما وهبه الله تعالى من قدرات عقلية وفكرية وإمكانات مادية وتكنولوجية من كشف العديد من سنن الله تعالى في الآفاق والأنفس، لكن دون استرشاد بقيم الدين أو التزام بمنهج الخالق سبحانه موجد تلك السنن في هذا الكون المبدع، وهذا الأمر هو الذي يشير إلى المخاطر العظيمة التي تحيط بالبشرية من جراء تطور المعارف والعلوم بشكل تجريدي، ويضع منظّري فلسفة التربية أمام مسؤولياتهم لإعادة بناء القيم الإسلامية في اختبار حقيقي، فهل من نسق تربوي إسلامي متوازن يواكب الواقع المتغير في ضوء ثوابت الرؤية الإسلامية؟.

لقد طُرحت رؤى متعددة حول هذه المنهجية، للبحث عن أفضل الوسائل لاستعادة الإسلام مكانته الحضارية بين الأمم، لاشكّ أنَّ كلاً من تلك الأفكار كانت مدركة للحقيقة في جانب، ولكن الحلقة الجامعة لها هي أنها تشكل نوعاً من إجماع فكري يعكس بصورة أوضح طبيعة الأزمة والظروف الدقيقة التي يمر بها الإسلام نحو ظهوره الكلي بإذن الله تعالى .

يدور محور هذه الدراسة حول المنهج التربوي في الفكر الإسلامي، والهادف في الأساس إلى رسم معالم لفلسفة التربية الإسلامية المعاصرة في سعيها إلى تحقيق غاية الرسالة الكونية بإيجاد

الإنسان المؤهل لحمل تلك الرسالة، والذي يُعتَبر محتواه الداخلي الأساس لحركة التاريخ والمجتمع انطلاقاً من الآية الكريمة : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١].

تشتمل الدراسة على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، أما المباحث فهي كالآتي:

١- الترابط بين التربية والتصور الكلي للوجود .
٢- مقومات المنهج التربوي في الإسلام .
٣- أزمة المنهج التربوي الإسلامي.

المبحث الأول/ الترابط بين التربية والتصور الكلي للوجود:

يرى فلاسفة التربية أنَّ العملية التربوية بمفهومها العام تبدأ بصورة لا شعورية منذ ولادة الإنسان، لتستمر في تشكيل مداركه وإشباع مشاعره وتكوين أفكاره وعواطفه في ظل المجتمع، هذه العملية التربوية لها جانبان متلازمان : أحدهما (نفسي) يتعلق بطبيعة الفرد وميوله الذاتية بفعل غريزة (حب الذات) وهو الأساس، والآخر (اجتماعي) يتعلق بحاجات المجتمع وقيمه وتقاليده وعاداته، ولا يمكن إهمال أي من هذين الجانبين، أو استبدال أحدهما بالآخر، دون أن تتعرض العملية التربوية برمتها للضرر ، ومن خلال هذه التربية اللاشعورية يصبح الإنسان بصورة تدريجية جزءاً من الميراث المنهجي والقيمي والحضاري للمجتمع، وهي من الرسوخ بمكان، بحيث يستعصي على التربية النظامية (التعليم والتعلّم) محوها أو إزالتها بالكلية، وإنما تكتفي بتنظيمها أو توجيهها وجهة معينة. فالميراث المنهجي القائم على التصور الكلي للمجتمع هو الذي يحدد مناهج التفكير العلمي للإنسان، بينما الميراث القيمي يحدد أنماط سلوكه وطبيعة تصرفاته [(١)]، كالمجتمع الذي يتبنى مثلاً أعلى منخفضاً يُستمد من واقعه (كفرعون)، فإنَّ أحد دواعي تبني هذا المثل هو الألفة والعادة والخمول والضياع التي تصيب أبناء ذلك المجتمع [(٢)] .

من هنا تظهر بوضوح الصلة والارتباط الوثيق بين التربية والتصور الكلي للأمم، ولكن لما كان الوحي الإلهي هو المصدر الأساس لتشكيل الرؤية الكلية في المجتمع المسلم وتكوين ميراثه المنهجي والحضاري، صارت عقيدة التوحيد هي المقوّم الرئيس لفلسفة التربية في الإسلام من خلال رسالته الكبرى . يقوم الفكر الإسلامي هنا برسالته الكبرى التي لا يمكن أن يضطلع بأعبائها غيره، ولا أن تحقق أهدافها البنّاءة وأغراضها الرشيدة إلا على أسسه وقواعده، فيربط بين المقياس الخلقي (وهو رضا الله تعالى) الذي يضعه للإنسان، وبين حب الذات المرتكزة في فطرته (المقياس الفطري) .

فكيف يتم التوفيق بين المقياسين وتوحيد الميزانين لتعود الطبيعة الإنسانية في الفرد عاملاً من عوامل الخير والسعادة للمجموع بعد أن كانت مثار المأساة والنزعة التي تتفنّن في الأنانية وأشكالها؟

إنَّ التوفيق والتوحيد يحصل بعملية يضمنها الدين للبشرية التائهة، وتتخذ العملية أسلوبين :

الأسلوب الأول: هو تركيز التفسير الواقعي للحياة وإشاعة فهمها في لونها الصحيح كمقدمة تمهيدية إلى حياة أخروية يكسب الإنسان فيها من السعادة على مقدار ما يسعى في حياته المحدودة هذه في سبيل تحصيل رضا الله، فالمقياس الخلقي (رضا الله تعالى) يضمن المصلحة الشخصية في نفس الوقت الذي يحقق فيه أهدافه الاجتماعية الكبرى .

الأسلوب الثاني: التعهد بتربية أخلاقية خاصة، تعني بتغذية الإنسان روحياً، وتنمية العواطف الإنسانية والمشاعر الخلقية فيه، فإنَّ في طبيعة الإنسان طاقات واستعدادات لميول متنوعة، بعضها ميول مادية تتفتح شهواتها بصورة طبيعية، كشهوات الطعام والشراب والجنس، وبعضها ميول معنوية تتفتح وتنمو بالتربية والتعاهد؛ ولأجل ذلك كان من الطبيعي للإنسان – إذا تُرِك لنفسه– أن تسيطر عليه الميول المادية؛ لأنها تتفتح بصورة طبيعية، وتظلّ الميول المعنوية واستعداداتها الكامنة في النفس مستترة .

والدين باعتباره يؤمن بقيادة معصومة مسددة من الله، فهو يوكل أمر تربية الإنسان وتنمية الميول المعنوية فيها إلى هذه القيادة، فتنشأ بسبب ذلك مجموعة من العواطف والمشاعر النبيلة، ويصبح الإنسان يحب القيم الخلقية والمثل التي يربّيه الدين على احترامها، ويستبسل في سبيلها، ويزيح عن طريقها ما يقف أمامها من مصالحه ومنافعه[٣] .

إنَّ المعرفة والقيم أمران متلازمان في المنهج التربوي الإسلامي، فكلما ازداد الإنسان معرفة بأسرار الخلق ازداد علماً بالخالق تعالى، وسعى إلى التقرب إليه وتربّى على الخصال الحميدة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٤]. لذلك ذهب بعض المفكرين المسلمين في تعريف التربية بأنها: ((إدراك وتحقق بمواضع الأشياء في سُلَّم الخلائق، يُغرس تدريجياً في الإنسان بحيث يقوده إلى الإدراك التام والتحقق بمكانة الخالق في نظام الوجود))[٥]، فالتصور الكلي هو الذي يحدِّد للتربية فلسفتها وإطارها المعرفي والقيمي، ويوفر رؤية واضحة عن الكون والإنسان والحياة، ويحدد الأهداف الاستراتيجية للعملية التربوية، بل يصوغ الإنسان والظروف المناسبة للمجتمع ليعيش في ترابط وانسجام .

إنَّ ارتباط النظم التربوية للأمم بتصورها الكلي للوجود يقرر حقيقتين مهمتين: الأولى: أنَّ أي اختلال في التصور الكلي للأمة له أثرٌ على نظامها التربوي وقدرته على تحقيق غاياته الجوهرية، كما أنَّ تهافت النظم التربوية قد تقتضي إعادة النظر فيها من جديد، وهي التي تقودنا إلى الحقيقة الثانية ألا وهي أنَّ الشعوب عندما تُبتلى في نظمها التربوية وتُحمل – قسراً أو طوعاً– على تبديلها أو تغييرها فإنَّ الإشكالية التي تواجهها حينئذ ليست إشكالية نظم ومناهج تربوية ، وإنما إشكالية تصور كلي للوجود، وبالتالي أية محاولة من هذا القبيل يجب مقاومتها .

هاتان الحقيقتان هما التحدي السافر الذي يواجه أمة الإسلام اليوم في تقلّبها بين محاولة الحفاظ على أُسس نظامها التربوي الموروث – الأسرة ورابطتها المتينة، المسجد، قيم الدين... وغيرها– وبين إرهاصات عالم مادي مضطرب مفعم بتطورات المعارف وتقلبات الأحداث (٦).

ولذلك لابدّ أن يُدرس المنهج التربوي بما أنه جزء من منظومة الإسلام الشامخة، لا أن يُدرس بصورة مستقلة بمعزل عن باقي مكونات المنظومة: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (٧).

نعم . فكلمة الله لا تنفد ، في حين أنّ كل المذاهب التربوية الوضعية قد وصلت إلى منتهاها بحكم نسبية العقل ونسبية المثل الأعلى الذي يتطلع إليه كل فلاسفة التربية (٨) .

المبحث الثاني/ مقومات المنهج التربوي في الإسلام:

إنَّ فلسفة التربية مهما تباينت وسائلها وتعددت غاياتها، تقوم على ركنين: أولهما: معرفة طبيعة الإنسان وتكوينه، وثانيهما: هو المادة التي بها تتم صياغة الإنسان لتعينه على تحقيق غايته في الحياة بتلبية متطلبات ذلك التكوين، وفهم طبيعة الإنسان، هذا الكائن الفريد في مداركه وغاياته وطموحاته، هو المحور الأساس في العملية التربوية؛ حيث أنَّ معرفة هذه الطبائع تساعد على اختيار الأسلوب الملائم لتربيته وتنميته.

إنَّ فهم طبيعة الإنسان تتم عن طريق معرفة الجدل الإنساني القائم بين حفنة التراب (الجسد) وبين نفحة من روح الله (الروح)، وما لم ينتصر أفضل النقيضين في ذلك الجدل الإنساني، فسوف يظلّ هذا الإنسان يفرز التناقض تلو التناقض والصيغة بعد الصيغة حسب الظروف والملابسات، وحسب الشروط الموضوعية ومستوى الفكر والثقافة.

فلا بدّ للرسالة التي تريد أن تضع الحل الموضوعي للمشكلة أن تعمل على كلا المستويين، أن تؤمن بجهادين: جهاد (النفس) سمّاه الإسلام بالجهاد الأكبر وهو الجهاد لتصفية ذلك التناقض الرئيسي، لحلّ ذلك الجدل الداخلي؛ وجهاد أصغر وهو جهاد في وجه كل صيغ التناقض الاجتماعي، وفي وجه كل ألوان استئثار القوي للضعيف من دون أن نحصر أنفسنا في نطاق صيغة معينة من صيغ هذا الاستئثار؛ لأنَّ الاستئثار جوهره واحد مهما اختلفت صيغه(٩)؛ لذا جعل فلاسفة التربية الغربيين، في محاولة لدعم الجهد التربوي بأسس علمية تستند إلى علم النفس أساساً للعلوم التربوية بصورة عامة، وهو اتجاه يتوافق مع المنهج القرآني الذي يجعل من معرفة النفس الإنسانية وسيلة لمعرفة الخالق تعالى : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١٠) ، وهذا ما أشار إليه الحديث الشريف : ((مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربّه))(١١)، وهو السبب البيّن لاهتمام المنهج

الإسلامي القديم (فلاسفة، ومتكلمون، ومتصوفون) بمعرفة النفس الإنسانية وطبائعها. ولكن معرفة الطبيعة الإنسانية هنا لابدّ أن تستند إلى المفهوم القرآني للإنسان، بحيث يتجاوز سلبيات المنهج التربوي الغربي في محاولته لمعرفة الإنسان بإخضاعه لمنهج العلوم الطبيعية أسوة بالمادة [١٢] .

يطرح القرآن الكريم عنصراً آخر لمعرفة الإنسان بصورة صحيحة، لم يفطن إليه فلاسفة الغرب كثيراً، ألا وهو علاقة الإنسان ببقية الموجودات؛ إذ إن منزلة الإنسان وقيمته من المنظور القرآني، لا تظهر بوضوح ولا تبدو على حقيقتها إلا بالنظر إلى علاقته بغيره من الخلائق حوله (الكون، والبيئة، وسائر الكائنات) لا بالنظر إلى الإنسان ذاته، حيث رعى الله ﷻ الإنسان رعاية خاصة بأن جعله حرّاً مختاراً وسخّر له كل الكائنات حتى يتكامل، لذلك فهو أفضل الموجودات بشرط أن يراعي ما به صار إنساناً، وهو العلم الحق والعمل المحكم، يقصد بالعلم الحق: معرفة الإنسان غايته في الوجود بإدراك منزلته بين الخلائق، أي إدراك أنَّ للطبيعة المختلفة مهمة مختلفة في الحياة. أما العمل المحكم: فهو الفعل الذي يحقق تلك الغاية، وفق ما جاء به الأنبياء والقيام بالعدل بين الكائنات.

إن الفعل المختص بالإنسان يتحدد بثلاثة أمور:

الأول: عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[١٣]، وعمارة الأرض هي تحصيل ما به تزجية المعاش للإنسان نفسه ولغيره.

الثاني: العبادة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١٤]، وهي الامتثال للباري ﷻ في أوامره ونواهيه.

والثالث: هي الخلافة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[١٥]، وهي الاقتداء بالباري سبحانه على قدر الطاقة البشرية في السياسة باستعمال مكارم الشريعة [١٦] .

يرى النحلاوي أنَّ الإنسان ذات طبيعة قابلة وفاعلة في علاقته بالوجود. أما قابليته فمن حيث صلته بالعالم العلوي، وكونه محلاً للقيم الأخلاقية التي تفيض من خالق الوجود. أما فاعليته معرفياً فمن حيث صلته بالعالم المادي وكونه قادراً على كشف ما أودع الله فيه من السنن والتصرف فيها بالتحليل والتركيب على مقتضى الإرادة. لذلك فإن المعرفة والقيم هما عنصرا الطبيعة الإنسانية اللذين بهما يتحقق تكامل الإنسان ويشكلان بصورة متوازنة مادته التربوية نحو غايته. وهذا يعني أن التفريط في أي منهما يفقد الإنسان دليل رسالته في الوجود، فإذا فرّط في الفاعلية يفقد ما اختصّ به من فعل التعمير والخلافة وما يتبعهما من النهضة والعمران. أما التفريط في القابلية فيفقد الإنسان غايته في الوجود بقطع الصلة بينه وبين مدبر الكون، ويفقدان أي من الأمرين يهبط

الإنسان إلى منزلة دون منزلته، أي من مكانة الإنسان إلى درك الأنعام؛ لأن الشيء متى ما فقد المعنى الذي أوجد لأجله كان ناقصاً.

هذه هي المعاني التي يجب أن تقصدها فلسفة التربية وتحتويها المادة التربوية في المنهج الإسلامي لتُغرس تدريجياً في أذهان النشئ من الأجيال المسلمة، أعني إدراك الإنسان غايته في الوجود ورسالته في الحياة وعلاقته بما حوله من الخلائق (١٧) .

يُعتبر التوازن أهم مقوم لفلسفة التربية في الإسلام، حيث أن طبيعة الإنسان في الإسلام من حيث ذاته فهي طبيعة خيرة في الأساس وهو جسد وعقل وروح في تكوينه كما أشار إليه القرآن الكريم، وأكدته السنة النبوية الشريفة، ولكل جانب من هذه الجوانب حاجته ومتطلباته التي ينبغي لفلسفة التربية أن تأخذها في الاعتبار، فقد تكون حاجة مادية من متطلبات البدن، وهنا لابد من الاهتمام بتوفير ضرورات الحياة، أو حاجة روحية من متطلبات النفس، أو حاجة علمية معرفية من متطلبات العقل والمنهج. ليست ثمة فواصل وحدود واضحة بين هذه الحاجات الإنسانية المختلفة، فالإنسان حقيقة متكاملة من أجزاء متعددة يفضي عدم رعاية أي منها إلى خلل في الجانب التكويني أو النفسي أو المنهجي، لذلك أولى الإسلام كل هذه الجوانب بالعناية والرعاية في توازن ونسق عجيب (١٨) .

المقصود بالمنهج التربوي في الإسلام هو هذا النسق الذي يحقق التوازن في كيان الإنسان كله، مراعياً حاجته المادية والمعنوية وغايته في الوجود، وفق الظروف ووقائع الزمان والمكان. فالنسق التربوي في الإسلام نهج متكامل بهذا المعنى، فهو كما يعمّ كيان الإنسان بكل أبعاده الحاجية، يمتد أفقياً ليشمل الفرد والمجتمع بكل قطاعاته وفئاته، وهي عملية لا تنتهي عند حد ، بل تستغرق عمر الإنسان كله .

من خلال هذا النسق يظهر التباين بين مفهوم (التعليم) الذي صار شائعاً في هذا العصر، وبين مفهوم (التربية) المقررة في الخطاب القرآني والمبيّنة عملياً في السنّة النبوية، إذ إنَّ التعلُّم إنما هو أداة من أدوات التربية في سبيل تحقيق الإنسان غايته في الوجود. لذلك يرى كثير من التربويين أن مجرد حشو الذهن بالمعارف المجردة عن القيم لا يحقق غاية التربية ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾(١٩)، لهذا دأب القرآن على ربط المعرفة بالحكمة والتزكية، كما في قوله تعالى: ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾(٢٠)، أي العلم والقيم، وهما عنصرا العملية التربوية في الإسلام، كما أن المنهج التربوي التراثي استخدم فكرة (التأديب) للدلالة على عملية التربية والتعلم معاً، وهذا واضح في التراث الإسلامي من الناحية العملية، الأمر الذي يدعونا إلى صياغته من الناحية النظرية بلغة العصر(٢١).

المبحث الثالث/ أزمة المنهج التربوي الإسلاميّ:

إنَّ التوازن الدقيق في النظام التربوي الإسلامي بين عنصريه المعرفي والقيمي، قائم على وسطية الإسلام التي تنبذ التطرف بكل صوره وتنشد التوازن بكل خصائصه، فتحقيق التوازن مطلوب في كل شيء حتى في مجال تعدد مصادر المعرفة، إذ إنَّ الحقيقة قد لا تتجلى كاملة بالاعتماد على مصدر واحد، وهو ما ظهر بوضوح في أمر القرآن للنبي 6 بطلب الرأي والمشورة من أصحابه وهو المؤيد بالوحي ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾(٢٢)، تربية لهم وتعليماً حتى يعطي لهم دوراً في صنع القرار ويتفاعلوا مع النظام الإسلامي بالرغم من علمهم المحدود وما يترتب على ذلك من خسارة آنية، ولكن على المدى البعيد سوف يمتلكوا الخبرة اللازمة التي تؤهلهم لأن يكونوا قادة المستقبل .

وفي المنهج التربوي الإسلامي نماذج كثيرة تؤكد على مبدأ التوازن :

النموذج الأول: قرن الله ﷻ الإيمان بالعمل في كثير من الآيات الكريمة، فالإنسان لايكون مؤمناً ما لم يقترن إيمانه بالعمل الصالح، وبذلك فإن الإيمان لا يأخذ قيمته الإيجابية وصفته الصحيحة فيما لو تجرد عن العمل؛ إذْ سيتحول إلى قيمة مهملة، وفي مقابل ذلك ؛ فإنَّ العمل لا يكون إلا من خلال الإيمان، فهو أيضاً يصبح قيمة سلبية مهملة فيما لو فقد صاحبه الجانب الإيماني، لكنه يتحول إلى قيمة كبيرة إذا ما سبقه الإيمان، وكان منطلقاً من قلب مؤمن بالله تعالى.

وهكذا ، فإن الإسلام يريد من الإنسان أن يحقق التوازن في مجال العلاقة مع الله تعالى فيكون مؤمناً به إيماناً صادقاً خالصاً، وفي نفس الوقت عاملاً في سبيله تعالى بصدق وإخلاص، من أجل أن تكون شخصيته إسلامية صالحة تنفع الإسلام والمسلمين، وترتفع في هذه الأجواء الإيمانية نحو درجات التكامل .

إن الإسلام يعتبر أنَّ أي خلل في هذه العلاقة من شأنه أن يضعف محصلتها النهائية، ومن ثم تفقد الشخصية روحيتها الإسلامية، بل إنها تبتعد عن منهج الإسلام فيما لو فقد أحد العنصرين (الإيمان أو العمل) (٢٣) .

النموذج الثاني: الترابط بين الثقافة وبين الخبرة الاجتماعية، من المسائل الأساسية لنجاح مهمة الإنسان الرسالي، فلا يكفي أن يمتلك رصيداً ثقافياً حول المجتمع، بل إنَّ هذا الرصيد قد يسبب له إرباكاً واضطراباً في تحركه ما لم يمتزج بالحس الاجتماعي، إذ إنَّ المفهوم النظري لا يكفي وحده لأن يجعل من الشخصية الإسلامية شخصية مؤثرة ناجحة في عملها. وإلى جانب هذه الحالة، هناك من يتمتع بحس اجتماعي جيد لكنه يفتقر إلى الثقافة العامة، ويبرر ذلك بأن العمل الإسلامي مع الناس لا يحتاج إلى مستوى ثقافي كبير؛ لأن عامة الناس لايمتلكون مثل هذا المستوى.

إنَّ هاتين الحالتين وإنْ كانت متعاكستين، إلا أنهما يمثلان خللاً في فهم الدور الرسالي والأبعاد الحقيقية للثقافة ، الأمر الذي يجعل من الشخصية غير متوازنة في المجال الثقافي .

النموذج الثالث: تحقيق حالة التوازن بين الفرد والمجتمع، فقد نظم الإسلام ذلك بشكل رائع، حين أعطى لكل جانب واجباته الخاصة، وجعل الترابط بينهما متصلاً ووثيقاً، فالسلوك الفردي له آثار اجتماعية عامة، كما أن التماسك الاجتماعي يحقق للفرد مكاسبه .

النموذج الرابع : تحقيق التوازن بين (الكم والنوع)، فعندما تتحقق هذه الحالة المتوازنة ، فإن الزيادة العددية يمكن أن تشكل عنصر قوة في البنية الاجتماعية على أساس أن الطاقات البشرية ستتجه نحو خدمة بعضها البعض، مما يبني قاعدة اجتماعية متينة، لقد اهتم الإسلام بالنوعية وأكد على ضرورة تمتع الجماعة بالروح الإيمانية حتى يمكن أن تحقق التماسك الاجتماعي وتعيش حالة التوازن، وبذلك تكون قوة حضارية في مواجهة الآخرين، أما الحساب العددي فلم يعطه الإسلام أهمية وأولوية في البناء الاجتماعي (٢٤) .

إن منهج الوسطية في الإسلام قد يتعرض لاختبار وفق ظروف الزمان باختلال توازنه الدقيق، الأمر الذي يجعله في حاجة إلى إعادة صياغته وبناء توازنه من جديد وفق المعطيات الظرفية، لكن لما غفل المسلمون عن هذا العنصر الاختباري المتغير في بعض عصورهم لاسيما بعد ظهور الفرق ، انقلب هذا النسق سبباً للشقاق؛ فبات (المنقول) حرباً على (المعقول)، كما عكستها العلاقات المتوترة بين تيارات المنهج الإسلامي المختلفة، حيث لم تنجح محاولات سلوك التيار الوسطي في تلك الظروف، كما تجلى في نصيحة الإمام أحمد بن حنبل أتباعه بعدم مجالسة الحارث بن أسد المحاسبي، صاحب كتاب (العقل) نظراً لميله إلى نهج التحليل العقلي للمسائل، الذي لم تشفع له في ذلك أعماله الجليلة مثل كتاب (الرعاية لحقوق الله) و(آداب النفوس) ولا نهجه الصوفي الصارم ومراقبته الدقيقة للنفس حتى عُرف بالمحاسبي على سبيل المثال (٢٥) .

إنّ عزل المعقول عن المنقول، اللذان هما عنصرا النسق التربوي المعرفي والقيمي في الإسلام، قد اتخذ مظاهر أخرى أحياناً في التاريخ الإسلامي انعكست في شكل (التهافت) للإمام الغزالي و(تهافت التهافت) لابن رشد من خلال المعركة التي دارت بين الفقهاء والفلاسفة المنتهية بظهور الأول على الثاني، مما أدى إلى انحسار مساحة العلوم العقلية والتطبيقية في الحقول التربوية إلى حد المنع في بعض الأحيان، ومن أبرز تبعات هذه العملية فقدان فعل التعمير وهو ما أشار إليه الرازي بـ((فاعلية الإنسان في صلته بالعالم المادي وكونه قادراً على كشف ما أودع الله فيه من السنن والتصرف فيها بالتحليل والتركيب على مقتضى الإرادة))(٢٦).

لقد اتخذت هذه القطيعة بين المنقول والمعقول منحى جديداً بخضوع أرض الإسلام للاحتلال ، حيث اجتهد المحتل لإعادة صياغة الإنسان المسلم عن طريق دراسات نفسية

واجتماعية عميقة، وإدخال نسق تعليمي آخر قائم على فلسفة تحييد القيم في العملية المعرفية، وهو الإرث الذي ما زال قائماً . على كل حال، بالاستناد إلى منهج (الوسطية) والتوازن الذي يتسم به الإسلام تظهر بصورة جلية أن الإشكالية ليست في المنقول أو المعقول أيهما أهم أو أفيد؛ لأنهما عنصران متضايفان لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وإنما تكمن الإشكالية في كيفية المحافظة على المعادلة بينهما في العملية التربوية في ظل أوضاع دولية متغيرة في غاية التعقيد [٢٧] .

الخاتمة:

فيما يأتي النتائج المستخلصة من الدراسة، وهي:

١- إنَّ هذه الدراسة التحليلية في مقومات المنهج التربوي في الإسلام، تُظهر بجلاء أنَّ فلسفة التربية في العالم الإسلامي ترتبط بعاملين ظرفيين أساسيين، أحدهما تراثي، والآخر آني متغير .

فالعامل التراثي يرتبط بالتصور المعرفي الكلي، الذي تضرر كثيراً بسبب الانفصام بين ما أسماه الإمام الرازي بـ(القابلية والفاعلية) من جانبي شخصية الإنسان المسلم، فوقع انفصال المنقول عن المعقول، الأمر الذي أدى إلى التعارض بين العقلية التحليلية والعقلية الإيمانية التفويضية، وظهور الثاني على الأول، إلى حين دخول الأمة تحت هيمنة الآخر مما أعطى أرضية في ظهور العلمنة وجدليات فصل الدين عن الحياة. أما العامل الآني المتغير فيرتبط بالواقع الدولي المتغير؛ إذ إن فلسفة التربية تتأثر بمحيطها الاجتماعي، كما تتأثر بتصورها الكلي، وقد ظهر دور هذا العامل جلياً عندما خضعت أرض الإسلام للاحتلال، كما نراه اليوم في صورة الضغوط التي تواجهها الأمة في أمر مناهجها التربوية .

إن دور هذا العامل ليس كبيراً، وإنما يظهر بقدر ضعف العامل الأول، أي لو كان المنهج التربوي الإسلامي متماسكاً في عنصريه المعرفي والقيمي وفي مصدريه النقلي والعقلي، كما تجلت في وقائع أسلمة التراث الإنساني بنظمه السياسية والمعرفية في العصور الأولى للإسلام، لما تأثر بأسلوب تربوي قائم على الجانب المادي في تشكيل نظم خطابه فقط ؛ إذ إن المعرفة من منظور مادي مهما كانت طبيعتها تشكل أحد عناصر التربية في الإسلام إلى جانب العنصر القيمي. فغياب العنصر القيمي في المعارف الغربية كان مدعاة للتفاعل والاندماج أكثر من كونه عنصراً سلبياً يفضي إلى الازدواج .

٢- إنّ مشروع (أسلمة العلوم والمناهج) يجب أن ينصرف بشكل أكبر إلى رفع هذا الانفصام بين العلم والإيمان في شخصية المسلم– أي في وعيه الداخلي– وذلك بوضع مناهج تربوية تولي الاهتمام بالتصور الكلي للإسلام؛ لأن صياغة الشخصية الإسلامية المعاصرة بحاجة إلى الجانب المعرفي والتقني الذي طورته الأمم الأخرى، إلى الجانب الإيماني الذي ما زال المسلم أصيل فيه. فالتوازن هو المطلوب، لكن لا يمكن إيجاد هذا التوازن إلا من خلال بناء التربية المنهجية على

التصور الكلي للإسلام، بحيث تتجلى بوضوح علاقة الإنسان بالخالق وبالوجود وبأخيه الإنسان . أما الانصراف إلى التفصيلات فقد يزيد الأمر تعقيداً في ظل الظروف الدولية المعقدة، فالبون ما زال شاسعاً بين الأخذ بالإيماني الخالص والمادي الصرف في صياغة الإنسان، ولكن يجب الأخذ بالاعتبار أن عنصر الزمن عامل أساسي في إعادة صياغة الأمم ، إذ لا يتم ذلك بين عشية وضحاها.

الهوامش:

(١) باقر شريف القرشي، النظام التربوي في الإسلام : ٥٤.

(٢) محمد باقر الصدر ، المدرسة القرآنية : ١٢٢.

(٣) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة: ٧٧.

(٤) فاطر: ٢٨.

(٥) فاخر عاقل، علم النفس التربوي : ٣٩.

(٦) ابراهيم عصمت مطاوع، أصول التربية : ٣٧.

(٧) الكهف: ١٠٩.

(٨) محمد عبد اللاوي، فلسفة الصدر: ١٩.

(٩) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية : ١٦٠.

(١٠) الذاريات : ٢١.

(١١) شرح نهج البلاغة : ج٢٠/٢٩٢.

(١٢) حامد زهران، علم نفس النمو : ٣٦.

(١٣) هود : ٦١.

(١٤) الذاريات: ٥٦.

(١٥) الأعراف : ١٢٩.

(١٦) عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع: ٥٣.

(١٧) عبد الفتاح دويدار، سيكولوجية النمو والارتقاء: ٣٩.

(١٨) عبد الفتاح دويدار، سيكولوجية النمو والارتقاء: ٤٠.

(١٩) الجمعة : ٥.

(٢٠) البقرة: ١٢٩.

(٢١) إبراهيم الدر، الأس البالوجية لسلوك الإنسان: ١٨٨.

(٢٢) آل عمران : ١٥٩.

(٢٣) حسين بركة الشامي، التوازن في الشخصية الإسلامية : ٣٤.

(٢٤) حسين بركة الشامي، التوازن في الشخصية الإسلامية : ٩٧.

(٢٥) عبد الفتاح دويدار ، سيكولوجية النمو والارتقاء : ٩٩.

(٢٦) إبراهيم الدر، الأسس البايولوجية لسلوك الإنسان : ١٧١.

(٢٧) حمدي أبو الفتوح، التربية وتنمية الاتجاهات العلمية من المنظور الإسلامي: ١٢٢.

المصادر:

- القرآن الكريم

١- إبراهيم الدرّ، الأسس البايولوجية لسلوك الإنسان، دار العربية للعلوم، بيروت، ١٩٩١م.

٢- إبراهيم عصمت مطاوع، أصول التربية، ط٥، مطابع الأهرام بكورنيش النيل، القاهرة، المكتب المصري الحديث، ١٩٩٠م.

٣- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٨هـ .

٤- باقر شريف القرشي، النظام التربوي في الإسلام، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ، ١٤٠٨هـ.

٥- جميل صليبا، علم النفس، دار الكتب اللبنانية ، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٦- حامد زهران، علم نفس النمو، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٢م.

٧- حسين بركة الشامي، التوازن في الشخصية الإسلامية، الناشر: ديوان الوقف الشيعي، ط٢، بغداد- العراق ، ٢٠٠٤م.

٨- حمدي أبو الفتوح، التربية وتنمية الاتجاهات العلمية من المنظور الإسلامي، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة ، مصر، ١٩٩٥م.

٩- عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، ط٢، دار الفكر ، دمشق، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

١٠- عبد الفتاح دويدار، سيكولوجية النمو والارتقاء، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٣م.

١١- فاخر عاقل، علم النفس التربوي، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٨٥م.

١٢- محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للإمام الصدر، ط١، إيران- قم، ١٤٢١هـ.

١٣- محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، مكتبة سلمان المحمدي، ط١، بغداد- العراق، ٢٠١٣م.

١٤- محمد عبد اللاوي، فلسفة الصدر، مؤسسة العارف للمطبوعات ، ط٢، بيروت، ٢٠٠١م.

١٥- نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، الطبعة المنقحة مع مقدمة وتعليق للشيخ علي الغروي، قم- إيران، مصادر الحديث الشيعية، ١٤٢٥هـ.